

رؤيـة مسيحية

المواطنة

فى مجتمع متعدد

بقلم
الدكتور القس مكرم نجيب

اهداءات ٢٠٠١

دار الثقافة

الهيئة الإنجيلية والقبطية

المواطنة في مجتمع متعدد

رؤية مسيحية

الدكتور القس / مكرم نجيب



طبعة أولى

المواطنة فى مجتمع متعدد

صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨- القاهرة

١٠/ ٨٣٥ ط١/١-١/ ٢٠٠٠

رقم الإيداع بدار الكتاب: ٥٣١٣/ ٢٠٠٠

I.S.B.N. 977 - 213 - 534 - 5

جمع وطبع بمطبعة سيويرس

تصميم الغلاف: **إخلاص مطر**

الفهرس

مقدمة		٣
الفصل الأول :	**روح العصر**	٥
	فكرة التقدم	٥
	فكرة الأهداف	٧
	فكرة التغيّر	٨
	فكرة الفردية	١١
الفصل الثانى :	**المواطنة فى مجتمع متعدد**	١٣
	صور التعدد	١٣
	لمحة تاريخية	١٥
الفصل الثالث :	**المواطنة كتابياً ولاهوتياً**	٢٢
	الخلق المتميز	٢٢
	الدعوة الإلهية	٢٤
	العهد والحرية	٢٥
	رسالة الأنبياء	٢٦
	حياة ورسالة السيد المسيح	٢٧
	فكر الرسول بولس	٣٠
الفصل الرابع :	**المشاركة معاً نحو المستقبل**	٣٤
	كنائس العالم	٣٥
	التيارات الفكرية	٣٧
	المجتمع المصرى	٤١
	دعوة للمشاركة النشطة	٤٦
	دعوة للمجتمع	٥٠
الخاتمة		٥٧

مقدمة الدار

يتميز روح العصر ببعض الأفكار الكبيرة والمتدرجة والمترابطة، مثل أفكار التقدم والأهداف والتغير والثبات والفردية، وكلها أفكار بدأت في وقت ما وترابطت بشكل ما، وتدرجت في نموها تحت نفس الظروف، وهذا أدى إلى صور عديدة من التعدد، فهناك التعدد الجغرافي والعُمري والطبقي والثقافي والسياسي، وغير ذلك من الأشكال. ولذلك فهناك احتياج ضروري لتعميق فكرة المواطنة في المجتمع المتعدد، ويبدأ ذلك بتأصيل الفكرة التي بدأت منذ فجر التاريخ عندما اكتشف الإنسان حاجته للاتصال بغيره وتبادل المنافع إلى أن وصلت فكرة المواطنة إلى المفهوم الحديث والذي ظهر في فكرة العقد الاجتماعي بما يعنيه من حرية إرادة الإنسان، وفي نفس الوقت وجود قانون ينظم تفاعل حريات وإرادات الأفراد، وهناك احتياج أيضاً لتأصيل فكرة المواطنة من منظور لاهوتي، فهناك أسس كتابية ولاهوتية للمواطنة في الفكر المسيحي، وهي أيضاً ظهرت منذ أن خلق الله الإنسان ودعاه للارتباط بالمكان والتواجد مع الآخرين، ولذلك فإن الكنيسة مدعوة إلى دور تربوي تؤصل فيه مفاهيم صحيحة عن المواطنة والمشاركة والمسئولية، بعد أن اجتازت الكنيسة منحنيات كثيرة وتيارات فكرية عديدة نادى بعضها بالفصل التام بين الكنيسة والعالم، والبعض الآخر نادى باندماج الكنيسة الكامل في المجتمع.

إن احتياج المجتمع المصري الآن هو أن يدرك أن الكنيسة كالخميرة، وهذا يعني أن على الكنيسة أن تتبنّى تياراً معتدلاً تنفتح به على العالم وتشارك في تنميته.

دار الثقافة

مقدمة

يتصور بعض المسيحيين أن حياتهم لا تنتمى إلى هذا " العالم " وبالتالى يشعرون بالاغتراب فى أوطانهم ويغالون فى السلبية والانسحاب والانطواء على أنفسهم، وفى الابتعاد عن الانشغال بقضايا مجتمعاتهم، ظناً منهم أن الانشغال بظروف وحياة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمشاركة فيها، من صفات أهل " العالم " " غير الروحانيين ".

على الجانب الآخر، نستمع فى بعض الأحيان إلى أصوات ونزعات تنظر إلى الإنسان وتصنفه على أساس دينى، وليس على أساس المواطنة فى إطار العمل الوطنى الواحد. ظناً منهم أن الانتماء للدين يتعارض مع الانتماء للوطن.

وهنا قفزت إلى الذهن أسئلة عديدة. منها :

* هل الانشغال بظروف المجتمع والمتغيرات العالمية أمر روحى ؟ أم أن الروحانية الصحيحة تشمل حتماً هذه الجوانب؟
* هل توجد أسس إيمانية ولاهوتية نستند عليها ؟
* هل الكنيسة والأفراد مدعوون للمشاركة النشطة بناء على هذه الأسس ؟
* كيف نتخلص من الرواسب السلبية ؟
* ما هو الموقف الصحيح من " العالم " ؟

* كيف تطور وتبلور مفهوم المواطنة عبر التاريخ ؟
* كيف يكون هذا المفهوم هـو الأسـاس والقيـاس لوطنيـة جميـع المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والحزبية ؟
* كيف ندفع بالجميع فى هذه المرحلة التى تتجه فيـها بلادنـا إلـى مساحات أوسع من الديمقراطية والحرية إلى المشاركة الفعالة للبنـاء والتنمية ؟

وللإجابة على هذه الأسئلة - التى تحتاج إلى جهد أطول وأكبر - أقدم بإيجاز هذه الدراسة راجياً أن تساعد فى صياغة إقتناعاتنا الصحيحـة والنافعة.

الدكتور القس مكرم نجيب

الفصل الأول
روح العصر

يتميز عصرنا ببعض الأفكار الكبيرة المتدرجة والمترابطة نذكر منها على سبيل المثال ما يتصل بموضوعنا بشيء من التركيز :[1]

١- فكرة التقدم

- سادت هذه الفكرة بصورة واضحة بعد تطور الاكتشافات العلمية في عصر التنوير والنهضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وهي تنادي بتحقيق المجتمع الأمثل للجنس البشري عن طريق إعلاء العقل والعلم.

- وضع أساس هذه الفكرة كل من جون لوك وهيلفيسيوس وبانثام. في القرن ١٨ نادى فونيتنل بها، وكذلك كوندورسيه في كتابه"

[1] د. زكي نجيب محمود .ثقافتنا في مواجهة العصر. (القاهرة : مهرجان القراءة للجميع ٩٧، الأعمال الفكرية) ص ٩٩ - ١٣٠

تاريخ تقدم الروح الإنسانية " وفى صيحته " لنسر قدماً نحو المثل الأعلى". كما شارك بوهل J . B . Buhle فى المناداة بها فى دراسة له حول تاريخ الفلسفة عام ١٧٦٦.
تأثر هذا الاتجاه بوضوح بأفكار كل من :

- فريدريك هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١ عن الجدلية المادية، وصراع النظرية التى تخرج مع النظرية المضادة لتنتج نظرية ثالثة جديدة وهكذا...

- كارل ماركس طبق نظرية هيجل فى صراع الطبقات بين العمال والفلاحين وبين رأس المال، وهكذا نفس الصراع الذى ينتهى بنظرية جديدة .. وهكذا إلى أن ننتهى بيوتوبيا المدينة الفاضلة..

- تشارلز داروين ١٨٠٩ -١٨٨٢ توافق هذا الاتجاه مع نظريته حول النشوء والارتقاء، وأصل الأنواع، والانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح فى صراع المخلوقات للتكيف مع البيئة. وهذا أدى إلى تطور أشكال أعلى أكثر تكيفاً.

- أرنولد توينبى المؤرخ الإنجليزى الذى توافقت هذه الفكرة مع نظريته التى تقول أن تاريخ العالم عبارة عن عمل يقابله رد فعل تبدأ بعده حقبة جديدة. ويرى أن هذا الاتجاه حرّك كل مراحل التاريخ، وهو اتجاه :

الفعل Action ورد الفعل Reaction أو الصراع بين نموذج قائم Thesis وعامل جديد Antithesis ينتج وضعاً جديداً Synthesis....وهكذا دوليك .. وهكذا ينتقل التاريخ من مرحلة إلى أخرى .. ومن عصر إلى عصر.[٢]

وما يهمنا فى النهاية من فكرة التقدم أنها تقتضى إزالة العصمة عن الماضى، لأن ما صلح من وسائله قد لا يصلح الآن فى ظروف عصرنا. وهنا يكون المعيار هو " المستقبل "، ويكون السؤال الحقيقى والمطلوب ليس ماذا كان بالأمس ؟ بل ماذا سيكون غداً ؟ وتحدث البعض عن موت فكرة التقدم، ولكننا بيقين الرجاء نرى أن العالم يسير من نقص إلى كمال وليس العكس وهذه الرؤية المستقبلية ضرورية لتحريك المجتمع وتحريك التاريخ. وهى تعنى أن التاريخ لا يتحرك من الحاضر أو الماضى، بل من المستقبل. لا يتحرك من الوضع القائم " Status Que " بل من الوضع القادم " Pro Que ".[٣]

٢- فكرة الأهداف

[٢] جون هرمان راندل. تكوين العقل الحديث، الجزء الأول. ترجمة د.جورج طعمه (بيروت: دار الثقافة،١٩٦٦) صفحة ٥٤٨ -٥٥٢

[٣] د. مراد وهبة، د.منى أبو سنة . ابن رشد اليوم (القاهرة : دار قباء ١٩٩٧) ص ٤.

وهى التى تقـود إليها فكرة التقدم، وهى رؤية جماعية مشتركـة لا " فردية " شخصية .. وكلما تبدلت الأهداف تبدلت السبل لتحقيقـها ... وهذه الفكرة، فكرة تحقيق الأهداف التى تقـود إلـى التقـدم، وتبـدل الأهداف و الوسائل طبقاً لطبيعة كل مرحلة بمؤثراتها المختلفـة تقـود إلى الفكرة الثالثة...

٣- فكرة التغيـر

فى مقابل " الثبات " ... التغير نسبى والثبات مطلق، ومحور التغّير هو " التطور " كما أن أساس التغّير هو " ديناميكية الحركة " وليس سكونية الثبات.. والحقيقة التى تظهر التباين بين الأثنين هى حقيقة " الزمـن " وزاوية النظر إليه أهو خط هندسى لا فـرق بيـن أجزائـه أم هـو مخروطى يتسع كل ما استطال . ولقد عبر John Naisbitt المفكـر الأمريكى فى كتابه المعروف Megatrends (١٩٨٤) عـن عشـرة اتجاهات كبرى ستسود العالم فى القرن الحادى والعشرين[٤] وقد بـدأت تسود بالفعل الكثير من هذه الاتجاهات، ولقد قدَّم الأستاذ السيد ياسـين دراسة عن " التناقضات الاجتماعية " فى كتاب " مصر فى القرن ٢١

---

[٤] John Naisbitt Megatrends,Ten New Directions Transforming Our Lives (New York : Warner Books, 1984)

– الآمال والتحديات" [٥] ، وفى هذه الدراسة قدّم تلخيصاً لهذه الاتجاهات العشرة، لمن لا يمتلك الأصل الإنجليزى، كالآتى:

١–سيحدث انتقال حاسم من المجتمع الصناعى إلى مجتمع المعلومات. ويعد هذا الانتقال نتيجة حتمية للثورة العلمية والتكنولوجية التى يعد اعتبار العلم إحدى قوى الإنتاج الرئيسية فيها إحدى سماتها الرئيسية. وأصبحت المعلومات : إنتاجها وتداولها وسرعة هذا التداول إحدى السمات المميزة للمجتمعات التكنولوجية المعاصرة.

٢–الانتقال من التكنولوجيا الصناعية رفيعة المستوى والتى هى فى متناول الجميع، وأبرزها بطبيعة الحال الحواسب الآلية.

٣–الانتقال من الاقتصاد القومى إلى الاقتصاد العالمى. ويكشف عن ذلك دورة الجات السادسة فى أورجواى، والتى ترتب عليها توقيع المعاهدة الخاصة بإنشاء منظمة التجارة العالمية والتى انضمت لها ١١٤ دولة، وبذلك حققت الكونية الاقتصادية أحد أبرز إنجازاتها.

٤–الانتقال من التفكير على المدى القصير إلى التخطيط على المدى الطويل. وربما يكشف عن ذلك بزوغ وذيوع مفهوم الرؤية

---

[٥] د. أسامة الباز (المحرر). مصر فى القرن ٢١، الآمال والتحديات. (القاهرة : مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٦) ص ١٠١ و ١٠٢

الإستراتيجية للمجتمع، والتى تحاول أن تستشرف الآفاق وتخطط للمجتمع على مدى ربع قرن من الزمان .

٥-الانتقال من المركزية إلى اللامركزية. وهو تحول يعكس تحولات فكرية كبرى من نظرية الحداثة إلى نموذج ما بعد الحداثة، الذى لا يؤمن بالأنساق الفكرية المغلقة، ولا بالمجتمعات الجماهيرية، ويدعو إلى إحياء المجتمعات المحلية.

٦-الانتقال من المساعدة المؤسسية التى تتمثل فى مؤسسات الدولة أو القطاع العام إلى المساعدة الذاتية، والتى يكشف عنها النمو الواسع المدى للمنظمات الحكومية والجمعيات التعاونية.

٧- الانتقال من الديمقراطية التمثيلية إلى الديمقراطية التشاركية. وذلك فى ضوء الانتقادات التى وجهت لفكرة التمثيل، وعدم كفايتها للتعبير عن الحاجات والمطالب الشعبية.

٨- الانتقال فى التنظيم الاجتماعى من فكرة التدرجية الرأسية إلى طريقة التنظيم التى تقوم على الشبكات التفاعلية.

٩- الانتقال من التركيز على الشمال إلى الاهتمام بمشكلات الجنوب.

١٠-الانتقال من طريقة التفكير الثنائية التى تقوم على الاختيار الجامد بين بديلين فقط إلى طريقة تقوم على تعدد الاختيارات.

ويقصر المجال – بطبيعة الحال – عن الاستفاضة في شرح كل إتجاه من هذه الاتجاهات الكبرى، فلكل منها أصولها وبنية ووظائف تحتاج إلى مساحة أوسع لتغطية كل جوانبها.

٤- فكرة الفردية

الفكرة القديمة أن الفردية " ذات " مستقلة قائمة بذاتها كأن لم يكن في الدنيا سواها. وهذا التصور انعكس على الفلسفة في كل عصورها القديمة والمتوسطة والحديثة:

يقول سقراط : " أعرف نفسك "
ويقول ديكارت : " أنا أفكر إذاً أنا موجود "
ويقول ليبنتر : "النفس كالذات المصمتة ليس لها نوافذ تُطل منها على سواها" كما إنعكس ذلك على الأدب فنرى فكرة الفردية فى :
دانيال دى فو وقصة روبنسن كروزو : وهو فى فردانيته فى جزيرته المعزولة.
وفى تراثنا العربى : ابن باجة فى " تدبير المتوحد " وابن طفيل فى " حى بن يقظان " حيث نرى فردية مستقلة أنظر (د. يوسف زيدان والنصوص

الأربعة لهذه القصة لابــــن سينا وابن النفيـــس والسهروردى وابن طفيل) اتسعت فكــرة الفرديــة لتشمل فكرة الانسان عن أمته وكأن هذه الأمة فرد ضخم متعدد الأعضاء لكنه متميز كل التميز عــن سائر الأمم.

ثم تطورت الفكرة فى الفلسفة والأدب والسياسة الآن فأصبحت الفرديـة القديمة مستحيلة " فالأنا " لا وجود لها بغــير" الأنت " ... ولكى تكون على علم بنفسك لا مناص لك من مخاطبة سواك.

ولذلك نستطيع تعديل عبارة سقراط فنقول " أعرف نفسك عن طريـــق معرفتك لغيرك " وسقراط نفسه تفلسف فى الســـوق لإزالـــة العقـــائد الزائفة من عقل رجل الشارع، ودفع هذا العقـــل الجمـــاهيرى إلـــى الكشف عن الحقيقة من خلال الحوار مع الآخر.

أما عبارة الفيلسوف ديكارت فقال له " هوسول " تفكر فى ماذا ؟ فـــلا فكر إلا فيما عداه إذن لا أنا إلا بسواها.

على هذا يكون التصور " الجماعى " فى اتجاه عصرنــــــــا للفـــرد أنه " عضو " ينتمى حتماً إلى جماعة أو جماعات وإلى وطن فى إطـار من " العلاقات " . وبغير هذا الانتماء الضرورى يفقد الفرد ذاته ويتيـه فى ضياع. ولذلك لم يصبح انتماء الفرد إلى وطنه أو أمته أمراً ثانويـاً له أن يختاره أو يرفضه، بل هو فى الصميم من وجوده، إذا تنكر لــــه تنكر لحياته نفسها.

الفصل الثانـى
المواطنـة
فى مجتمـع متعـدد

صور التعدد:

يموج المجتمع المصرى بصور كثيرة من صور التعدد :

* فهناك على سبيل المثال التعدد الجغرافى بين سكان الريف وسكان الحضر .
* والتعدد العمرى بين الشباب والشيوخ .
* والتعدد الطبقى الذى أنحصر أخيراً فى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء.
* والتعدد الثقافى بين العلمانيين والإسلاميين والرؤى والشعارات والمصطلحات المختلفة للجانبين .
* والتعدد السياسى بين أصحاب نظرية سيطرة الدولة والتنظيم السياسى للأغلبية، وبين أصحاب نظرية التعددية الديمقراطية الذين ينادون بتعديل الدستور، والفصل بين السلطات، وحرية إنشاء الأحزاب السياسية، وتداول السلطة .... الخ .

* والتعدد الاقتصادى بين أنصار حرية السوق والخصخصة، وبين أنصار هيمنة الدولة الاقتصادية والإبقاء على القطاع العام وترشيده ووضع قيود على حرية السوق .
* وأخيرا التعدد الدينى بين الإسلام والمسيحية على وجه الخصوص.

ولقد عاشت مصر قروناً طويلة فى تآلف واستقرار عبَّر عنه الدكتور وليم سليمان قلادة بتعبير " التعددية الوئامية "، والدكتور ميلاد حنا بعبارة " مصر لكل المصريين"[6]. ولكن ابتداءً من هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتى أدت الى مراجعات شتى، وتحت تأثير عوامل اقتصادية وسياسية وثقافية متنوعة، تصاعد بالتدريج خطاب إسلامى يدعو الى أسلمة المجتمع والدولة معاً . ومن فترة السبعينيات توالت تداعيات وأخطار كثيرة أزعجت مجتمعنا، وضغطت بشدة على عودة الحديث عن" المواطنة " لصالح بلدنا العزيزة وإستقرارها وتقدمها. خاصة وسط المتغيرات العديدة الأقليمية والعالمية من حولنا، والتى تدعو من جانب إلى الكوكبية والعولمة فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، ومن جانب آخر الى إضعاف سلطة الدولة، وتفكيك المؤسسات، وإثارة الصراعات الثقافية والعرقية والدينية .

[6] د. ميلاد حنا . مصر لكل المصريين (القاهرة : مركز ابن خلدون ، ١٩٩٣) ص ١٨٠ - ١٨٩ .

لمحة تاريخية

وإذا أخذنا فى الاعتبار الأخطار التى تحاصرنا من الداخل والخارج أولاً، وإذا استرجعنا الأفكار الكبيرة التى تجسّد روح العصر والوعى به ثانياً، أدركنا الحاجة الملحة والمسئولية المشتركة لإعادة تعميق فكرة المواطنة فى مجتمعنا المتعدد . وللوصول الى هذا الهدف لابد لنا فى البداية من جولة تاريخية سريعة حول نشأت فكرة المواطنة حتى تبلورت فى العصر الحديث[٧] .

أكتشف الإنسان منذ فجر التاريخ حاجته للاتصال بغيره والتعاون وتبادل المنافع مع الآخرين حوله، ومن هنا تكونت الأسر، والمجموعات من قبائل وعشائر ثم تطورت الى مدن وشعوب دول، وهكذا عرف الإنسان التجمعات البشرية بعلاقاتها الاجتماعية والسياسية، وحتمية وجود سلطة حاكمة وقوانين تشريعية تنظم العلاقة بين الناس وبعضهم البعض وبين الحاكم والمحكومين.

ولأن الإنسان (مدنى بالطبع) كما يقول بن خلدون فى " مقدمته " الشهيرة، تمكن من بناء الحضارات المتعاقبة، ومن السير نحو الرقى الاجتماعى، ومن وضع أسس المجتمع المدنى المنظم، مما أكسبه صفة المواطنة بما لها أو عليها من حقوق وواجبات تجاه الوطن .

[٧] د. القس مكرم نجيب . المسيحية والانتماء الوطنى (القاهرة : دار الثقافة ١٩٩٥) ص ١١ - ١٦ .

فالمواطنة فى معناها الواسع هى صفة لكل فرد ينتمى الـــى وطـــن أو دولة .

على أن مفهوم المواطنة كما نعرفه الآن لم يظهر دفعة واحدة، بل تبدل وتطور عبر الأزمان وعلى ضوء تاريخ التجربة الإنسانية الطويلة . فمثلا فى المجتمع السياسى الإغريقى القديم استطاع الإنســـان وضـــع تشريعات تحدد حقوقه وواجباته داخل مدينته، لكن مفـــهوم المواطنـــة حين ذاك أرتبط بالديانات السائدة من جهة وبالتركيبة الاجتماعية مـــن جهة أخرى . فالمواطن فى هذا الإطار هو الذى يقدس آلهة مدينتـــه، وبما أن التركيبة الاجتماعية القديمة كانت تتكون من أحـــرار وعبيـــد، إذن تكون المواطنـــة امتيازا للأحرار فقط .

هذه التجربة الأولى، برغم ما شابها من قصور، تشـــكل (البدايـــة) لتطور مفهوم المواطنة، كما أنها تشير الى وعورة الطريـــق، طريـــق تطور هذا المفهوم، حتى يتخطى العديد من العراقيل التى اعترضتـــه على أساس الوضع الاجتماعي والجنس والدين واللون الى آخره .

وعندما جاءت الأديان السماوية واحدا بعد الآخر التقت على محاربـــة العبودية وكل أنواع التفرقة والمناداة بالقيم الدينية الســـامية كالحريـــة والعدالة والمساواة. على أن الممارسة العملية فى أحقاب مختلفة مـــن التاريخ، وفى أماكن متعددة من العالم، أثبتت أنه بالرغم من أن الأديان نفسها نادت بالمفهوم الأشـــمل والأنبـــل للمواطنـــة إلا أن التطبيقـــات البشرية، خاصة فى عصور التدهور، جعلت البعد الدينى يطغى علـــى

مفهوم المواطنة ليصبح جدارا جامدا يحد من حرية الإنسان، بدلا من أن يكون إطارا رحبا يدفع به ومن خلاله الى تقدم الإنسانية عبر العصور.

الى أن جاء الإصلاح الدينى فى أوربا فى القرن السادس عشر الميلادى، وهو الإصلاح الذى مهد لعصر النهضة وعصر التنوير. ونادى المفكرون والمصلحون بأن الدين " المسيحى " يهتم بكل شئون الحياة، لكنه " يتمايز " عن الدولة والسلطة السياسية . هذا التمايز لا يعنى " فصل " الدين عن الدنيا كما يظن البعض أو " نفى " الدين من الدنيا كما يظنه البعض الآخر فهذا أمر مستحيل، إذ أن الدين لكى يكون دينا لابد أنه يشمل علاقة الإنسان با لله وبالآخرين وبالمجتمع الكبير الذى ينتمى اليه. لكن الدين، فى ذات الوقت، ليس هو" النظام" الذى يشرع ويحكم شئون الدولة بل هو " الملهم " للناس وللدولة بالقيم الدينية التى هى فى صميم ونسيج حضارة كل شعب. فالفصل المقصود فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، ورفض هيمنة المؤسسات الدينية على مقدرات وحريات الشعوب، لأن الدين هو "المحرر" للعقل الإنسانى من الجمود لينطلق ويفكر ويجتهد فى أمور حياته نحو الأفضل . وهكذا نادى المصلحون بالمساواة الكاملة بين البشر وبين رجال الدين والشعب أمام الله، وبحق التقدم لله مباشرة دون وساطات بشرية وبإتكال على نعمة الله، وبحق الجميع فى دراسة وفهم الكتاب المقدس، ومسئولية كل فرد قدام الله . وعلى أساس هذه التعاليم تعمقت قيمة الحرية وإعمال العقل فى كل المجالات، ووضعت الأسس الحديثة للنظم الديمقراطية، وأن السلطات فى الدولة معينة من الله،

وبالتالى لابد أن تعبر عن إرادة الله الصالحة بإقامة الحق والعدل لجميع المواطنين على السواء. وأيقظ المصلحون الشعور الوطنى، فاستخدموا لغة الشعب فى الصلاة والعبادة، وترجموا الكتاب المقدس الى لغتهم. كما نادوا بحق الطبقات الكادحة فى الحياة الكريمة فى مجتمع ديمقراطى، ووقفوا فى وجه تسيد الأمراء على فقراء الشعب، وفى نفس الوقت دعوا الى إعلاء قيمة العمل والإنتاج فى حياة الفرد والمجتمع، والبعد عن التواكل والتراخى .

وفى القرن السابع عشر نادى الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز بالفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، وأن الفترات التى عاشتها الإنسانية تحت حكم دينى انتفت فيها الحريات وانتهت الى عبودية مقنعة، وهذا ما أسماه هوبز " بالسلطة المولدة للطغيان "، ولذلك دعا الى تداول السلطة السياسية بصورة عادلة بين أيدى من يستحقها من الناس حسب اختيارات حرة وديمقراطية تتمثل فى عملية الانتخاب .

وفى القرن الثامن عشر تبلور المفهوم الحديث للمواطنة من قبل المفكرين والمصلحين وفلاسفة التنوير . فنادى جان جاك روسو " بالعقد الإجتماعى" الذى يكفل حرية الإنسان وإرادته، ويمكنه من المواطنة الحرة فى إطار حياة المجتمع، ولذلك لابد من قانون ينظم تفاعل إرادات وحريات الأفراد دون الحد منها، والسلطة المتولدة عن هذا النظام التعاقدى الحر هى الدولة الديمقراطية التى هى أرقى نظام سياسى عرفته الإنسانية، والتى فيها يتمكن المواطن من ممارسة

مواطنته على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تهم الوطن .

على أن هذا المفهوم الحديث للمواطنة لم يطبق ويمارس فعليا فى أماكن متعددة فى العالم، إلا فى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، حيث صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان من قبل منظمة الأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨، و الذى نادى بالحقوق الأساسية التى يجب أن يتمتع بها كل إنسان أينما كان دون أى تمييز أو تفرقة على أساس الجنس أو الدين أو اللغة أو الأصل الاجتماعى . ومن ذلك الوقت أصبح القانون الدولى هو الحامى لمواطنة الإنسان وفقا للقيم والمبادىء الإنسانية الشاملة التى بلورها الفكر الحديث ضمن المجتمع المدنى المعاصر. وحتى فى فرنسا التى ثارت ثورتها فى عام ١٧٨٩ بشعاراتها الشهيرة عن الحرية والإخاء والمساواة، ظل التمييز بين المواطنين على أساس ملكية وسائل الإنتاج، فالذى يملك هذه الوسائل ويستطيع دفع الضرائب يتصف بالمواطنة الإيجابية، أما الذى لا يمتلك وسائل الإنتاج وبالتالى يعجز عن دفع الضرائب فيتصف بالمواطنة السلبية. ولم يتغيير هذا الوضع إلا مع تغيير الدستور الفرنسى عام ١٩٥٨ الذى أقر " المواطنة الموحدة " لجميع المواطنين، بعد عشرة أعوام من إصدار الإعلان العالمى لحقوق الإنسان .

هذا المفهوم الحديث للمواطنة يضم أبعاداً مختلفة ومتكاملة، فهو يشمل:

* **البعد التشريعى** : الذى يحتم مساهمة المواطن فى وضع القوانين التى تنظم علاقة الأفراد فى المجتمع، والتى هى من صميم سمات المجتمع المدنى الذى يتعذر ممارسة المواطنة خارجه.

* **البعد السياسى** : الذى يضمن للمواطن حق الانتخاب والترشيح للعمل العام، وحرية التعبير عن الرأى فى كل ما يتعلق بشئون وطنه .

* **البعد الاقتصادى** : الذى يكفل حق كل مواطن فى العمل والحياة الكريمة، وواجبه فى المشاركة فى التنمية الشاملة للوطن .

* **البعد الاجتماعى** : الذى يتمثل فى إنتماء الفرد لأسرته الصغيرة ولمجتمعه الكبير الذى يشارك فى تحقيق مصلحته العامة.

* **وأخيرا البعد الثقافى** : الذى يحافظ على الثقافة والخصوصية الحضارية للمجتمع الذى ينتمى إليه المواطن، مثلما يطالب بالإثراء والإبداع من خلال التفتح على الثقافات الأخرى.

هذه الأبعاد بما تحمل من حقوق تتلخص فى ركنين أساسين للمواطنة : المشاركة .. والمساواة بين جميع المواطنين .. وفى إطار هذه الأبعاد، وعلى أساس المقومات والعناصر التى صنعت الكيان المصرى من جغرافيا (الأرض)، وتاريخ (حركة الجماعة)، وبشر (المصريون)، والمشروع المصرى .. الخ .

فى إطار هذه الأبعاد، وعلى أساس هذه المقومات صارت التعددية فـى مصر، وعبـَّرت عن نفسـها فـى التعـايش واللقـاء أى " الحيـاة المشتركـة "، وفى " المساحة المشتركة " من القيم والمفاهيم، والتـى فى مقدمتها يأتى مفهوم الإنسان الذى ينطوى على مبدأيـن متكـاملين متحديـن :

الأول : احترام الإنسان كشخص لأنـه " خليقـة الله علـى الأرض " و" صورة الله" .
والثانى : ضمان وحدة الجماعة باحترام التعددية والبعد عن الانقسام .

وهكذا نجد أن " الحياة المشتركة " و" مساحة القيم المشتركة " كمـا يقول د. وليم سليمان فى بحثه " الأقباط من الذمية الى المواطنـة " – وهما اللتان أفرزهما التدين المصرى، فى إطـار مقومـات الكيـان المصرى، أثمرتا " المشاركـة " إى النهوض بالمشروع الموحـد و" المساواة " أى قبول الآخر والترحيب به على قدم المساواة .

الفصل الثالث
المواطنة
كتابياً ولاهوتياً

هناك أسس كتابية ولاهوتيـــة للمواطنة فى الفكر المسيحى نذكر منها:

١ - الخلق المتميز :
يحدثنا سفر التكوين " **وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشـــبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلـــى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض. فخلـــق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه . ذكراً وأنثـــى خلقـــهم. وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا وإمـــلأوا الأرض واخضعوهـــا وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يـــدب على الأرض.** " (تك ١ : ٢٦ -٢٨)

معنى هذا أن الله لم يخلق الإنسان كسائر الأنواع والكائنات، بل أعطى له كرامة خاصة ومنحه الحرية والمسئولية. لقد خلقه حـــراً مفكـــراً

مسئولا أمامه (حز ١٨ : ١-٢٤). وجعله تاجا للخليقـــة ومتســلطا عليها وأخضع كل شئ له.

كما يذكر كاتب المزمور الثامن " **تسلطه على أعمال يديك . جعلت كل شئ تحت قدميه. الغنم والبقر جميعا وبهائم الـــبر أيضـــا . وطيـــور السماء وسمك البحر السالك فى سبل المياه .** " (مز ٨ : ٦ – ٨).

على هذه الحقيقة – حقيقـــة الخلـــق المتميز للإنسان على صـــورة الله – يقـــول العالم اللاهوتـــى الألمـــانى يورجـــن مولتمـــان Jurgen Moltmann كاتب كتاب " لاهوت الرجـــاء "Theology of Hope. وكتاب " الكنيسة فى قوة الروح " The Church in the Power of the Spirit يقول " إن فكرة الخلق على صورة الله تشمل إعطاء الله للإنسان حقوقه الفردية والاجتماعية كاملة، وبذلك أصبح للإنسان بحكم الخلق مشاركة الحياة من طعام وعمل ومأوى و ملكية، وهو إلى جانب ذلك مسئول أمام الله تجاه العلاقة بالغير، وتجاه مستقبل الناس والعـــالم والأجيال القادمة. وبنفس هذا القدر من الالتزام فإن دورنا الهام هـــو أن نعيد للإنسان صورة الله التى سلبها منه الاستعباد.... " .

ويقول الدكتور القس فايز فارس فى دراسة عن حقوق الإنســـان " أن صورة الله ليست منحة إلهية أوتوماتيكية تعطى للإنسان بقدر ما هـــى رجاء ووعد علينا أن نحققه فى حياتنا ومجتمعنا، وصورة الله الكاملـــة لا يمكن أن توجد إلا فى شخص السيد المسيح، الذى كلما إقتربنا منـــه وسقينا من روحه، إقتربنا من تحقيق صورة الله . فهو الذى يدفعنـــا أن

نحفظ كرامة إخوتنا فى الإنسانية فنحقق وعده فى أن نكون على صورته ".

٢- الدعوة الإلهية :
عندما خلق ا لله الإنسان دعاه أن يرتبط " بمكان " معين يتواجد فيه مع " آخرين " ولهذا " خلق الله الإنسان ذكراً وأنثى خلقهم "، ودعا الله " إبراهيم " أن يخرج من أرض عينها له (تك ١٢) ودعى شعبه بعد ذلك إلى أرض كنعان ليسكنوا فيها.

والارتباط بالمكان وبالناس ارتباط حيوى، لأنه ارتباط تاريخ ومصير وهدف، وهكذا أراد الله أن يحقق الناس فكرة " الوطن " والانتماء له كأرض وكشعب، يقول كارل بارت" Karl Barth " " كما أن الإله الواحد المثلث الأقانيم ليس وحيداً منفرداً فى ذاته، هكذا خلق الله الناس ليكونوا معاً وليكملوا بعضهم بعضاً فى المحبة ". هذا الإله العظيم هو الذى " **صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم** " (أع ١٧ : ٢٦). بمعنى أن الإله الذى خلق الناس يهتم بالموقع الجغرافى لهؤلاء الناس، وبارتباطهم بأوطانهم، وبالتأثير الواضح لطبيعة المكان على شخصية الإنسان، وطريقة تفكيره وأسلوب حياته (إقرأ دراسات الجغرافيا السياسية فى كتاب " شخصية مصر " لجمال حمدان).

من كل هذا نرى أن ارتباط الإنسان بوطنه، وممارسة المواطنة الصالحة والكاملة، دعوة إلهية مقدسة . وحتى فى بابل حيث تغرب

الشعب فى السبى، دعا الله الشعب أن يكونوا إيجابيين لصالح المجتمع الذى يعيشون فيه، إلى أن يأتى وقت عودتهم " **إبنوا بيوتاً وإسكنوا وإغرسوا جنات وكلوا ثمرها . خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء وإعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات وإكثروا هناك ولا تقلوا. وإطلبوا سلام المدينة التى سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام** ".(إر ٢٩ : ٤-٧)

٣- العهد و الحرية :

إرتبط الله مع شعبه " بعهد " سواء مع نوح أو إبراهيم أو موسى. ويشمل العهد بوضوح على" الأرض " و " النسل " أى الشعب . والوفاء للأرض والإنتماء للشعب، أساس فكرة " الدولة " و "الوطن" و" القومية " فى كل مكان فى العالم.

كما يتضمن العهد " القيم " التى تبنى على " الشرائع " الدينية، والتى تحكم علاقات الناس بالله، وعلاقتهم ببعضهم البعض . وفى شريعة موسى أعلن الله مطالبه الأدبية من الإنسان فى الوصايا العشر، ثم بين للناس أسلوب العبادة متمثلا فى نظام الذبائح التى كانت إشارة لفداء السيد المسيح للعالم. والأمر المهم أن الله أعطى شريعته للشعب بعد أن تحرر من عبوديته ونال كرامته " **بيد قوية وذراع ممدودة** " وعلى أساس هذه الحرية أعطيت الشريعة (خر ٢٠) . فالعهد هنا هو عهد " الله المحرر " مع " الشعب الحر " و أصبحت فكرة الحرية أساس التفكير الكتابى فى علاقة الله مع شعبه.

والعهد الجديد يتمركز حول عمل المسيح المحرر لكل النــاس الذيــن يؤمنون به، إذ يتمتعون " بحرية مجد أبناء الله " ويعملون على الدعــوة لتحرير الآخرين . ويقول مولتمان : " لا يقدر المسيحيون أن يــتركوا أى مجال دون الشهادة للحرية المقدسة، وعــهد الله، ومجــد وكرامــة البشر " .

من هنا، بات لزاماً على شعب الله، الاشتراك فـــى الدعــوة للحريــة والتحرير من خطايا الفرد وخطايا المجتمع، من الفســاد أو الظلــم أو الاستعمار، أى تحرير المواطنين و تحرير الأوطان .

٤- رسالة الأنبياء :

عندما استقرت الأمة اليهوديــة كمملكــة، كــانت الصــورة المثاليــة المطلوبــة هى " الحق والبر " وفى المفهوم الحديــث - كمــا يقــول الدكتور القس فايز فارس - نجد هاتين الكلمتين فى العبارتين " الحــق فوق القوة " و " العدل أساس الملك " . لكن الطبيعة الإنسانية الشــريرة ورغبة الحكام والملوك فى السيادة والســيطرة وإذلال الغــير، كــانت تجربة مريرة لهؤلاء .فأرسل الله الأنبياء ليحذروا السلطات، ويذكروهم بواجباتهم التى تتمثل فى رضى الله من خلال الحرص علـــى كرامــة المواطن، والعمل على مساواة المواطنين، وسلامة الوطـــن، وإقامــة المجتمع العادل.

كان الأنبياء مصدر إزعاج للسلطات المســتبدة، وتعرضــوا للمــوت والهزء والاضطهاد، ولكن هذا هو المصــير الطبيعــى لكــل الذيــن

يتمسكون بالمبادئ ويقاومون الظلم والظلام، ويدينون القسوة والقهر والعنف . لكن الأنبياء قاموا بواجبهم بأمانة وشجاعة نادرة، ولنستمع على سبيل المثال إلى إشعياء النبى يقول :

" ويل للذين يقضون أقضية البطل وللكتبة الذين يسجلون جوراً ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام. وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من بعيد إلى من تهربون للمعونة وأين تتركون مجدكم ". (إش ١٠ : ١-٣) ولنستمع إلى عاموس النبى يصرخ قائلاً : **" هكذا قال الرب. من أجل ذنوب يهوذا الثلثة والأربعة لا أرجع عنهم لأنهم رفضوا ناموس الله ولم يحفظوا فرائضه وأضلتهم أكاذيبهم التى سار آباؤهم وراءها فأرسل ناراً على يهوذا فتأكل قصور أورشليم. هكذا قال الرب . من أجل ذنوب إسرائيل الثلثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين. الذين يتهممون تراب الأرض على رؤوس المساكين ويصدون سبيل البائسين ويذهب رجل وأبوه إلى صبية واحدة حتى يدنسوا إسم قدسى. "** (عاموس ٢ : ٤-٧) . وكما كان أنبياء الله، هكذا يجب أن يكون كل شعب يؤمن بالله فى كل مكان.

٥- حياة ورسالة السيد المسيح :

عندما ولد السيد المسيح، تجسد فى شخصية إعلان الله الكامل عن ذاته، وتحقق فى حياته وفى عمله وعد الله وعهده ورسالة الأنبياء بفداء

روحى أعمق وأشمل يعيد للإنسان " صورة الله " التى خلق عليها، فى حرية وكرامة وإنسانية حقيقية.

فلقد تعامل المسيح مع جميع طبقات الناس وأجناسهم، بمساواة كاملة دون تعصب أو تحيز أو محاباة... كان من بين أصدقائه ومريديه البسطاء و الحكماء، الحكام والشعب، الأغنياء والفقراء. وكان يتعامل بنفس الحب والتقدير مع زكا العشار، والشاب الغنى، والطفل الصغير، والمرأة السامرية، والمرأة الخاطئة، والصياد. حتى مع المتطرفين دينياً تعامل بنفس المساواة والحب حتى أنه أخذ من واحد منهم تلميذاً هو سمعان الغيور. لكنه فى تعليمه كان يضع أمام الأغنياء تحديات الفقر (زكا والشاب الغنى) ومع الأقوياء يتحدث عن عجز القوة (نيقوديموس) . كان يقف دائماً إلى جانب المواطن خاصة المسكين والمقهور و الخائف والمهدد . ولقد أعلن بوضوح أن رسالته هى رسالة تحرير للأسرى وتبشير للمساكين : " **روح الرب علىّ لأنه مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب لأنادى للمأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين فى الحرية وأكرز بسنة الرب المقبولة** " (لو ٤ : ١٨ و ١٩)، حتى أنه أخذ على الصليب مكان المقهور والخاطئ والمتألم بإرادته وإختياره ليعطى نفسه للآخرين، وليكلم فينا إنسانيتنا المتألمة المشوشة والمشوهة ليرد لها إنسانيتها الضائعة وشفاءها الحقيقى، وليعيد صياغة حياة جديدة صالحة للإنسان تعيش فى دائرة رضى الله وحبه وفى حب الآخرين وخيرهم أى فى إطار من المحبة والعدل والخير.

ولقد عاش المسيح نفسه كمواطن صالح، يخدم أولى الأمر ، ويدفع ما عليه لمجتمعه، يرتبط بأرضه وبشعبه حتى أنه مرة بكى عليهم " **يا أورشليم يا أورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا** " (مت ٢٣ : ٣٧). " **ولما جاءوا إلى كفر ناحوم تقدم الذين يأخذون الدرهمين إلى بطرس وقالوا أما يوفى معلمكم الدرهمين. قال بلى . فلما دخل البيت سبقه يسوع قائلاً ماذا تظن يا سمعان . ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية أمن بنيهم أم من الأجانب ؟. قال له بطرس من الأجانب . قال يسوع فإذاً البنون أحرار . لكن لئلا نعثرهم إذهب إلى البحر وإلق صنارة والسمكة التى تطلع أولاً خذها ومتى فتحت فاها تجد إستاراً فخذه وأعطهم عنى وعنك**" (مت ١٧ : ٢٤ - ٢٧) .

وكان فى حنان بالغ يجول يصنع خيراً ويشفى المرضى، ويفتح أعين العمى، ويقيم المقعد، ويرد الحياة للموتى، ويشبع الجوعى، ويدعو الجميع إلى أفضل حياة، إلى الإيمان والرجاء والسلام والمحبة حتى للأعداء.

وفى حياة يسوع وعمله وتعليمه نرى المواطنة دعوة إلهية ترتبط بالمكان والمجتمع، ومن خلال الفداء تظهر قيمة الأخلاق الجديدة، أخلاق المحبة التى تتفق مع الإيمان فتكون شهادة تتفق مع الدعوة.

وفى قولته الشهيرة " **إعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله**" (مـو ١٢ : ١٧) لم يكن يقصد كما يردد البعض حتى من الكتاب والمفكريـن، أن يفصل بين الدين والدنيا، بين الله والوطن والمجتمع، بل كما رأينا فـــى حياته وفكره، أراد أن يقول الانتماء لله لا يتعارض مع الانتماء للوطـن ولا مع دفع حقوق المجتمع والعمل لصالحه، بل إن الانتماء الحقيقى لله والتدين الحقيقى الصحيح يظهر فى المواطنة الصالحـــة وفـــى الحيـاة اليومية الشاهدة لخير المجتمع والأمة.

٦- فكر الرسول بولس :

يؤكد الرسول بولس ما تنادى به المسيحية فى المساواة الكاملـــة بيـــن المواطنين، بغض النظر عن خلفياتهم الدينية أو الثقافية أو الاجتماعيـــة وبغض النظر عن كون المواطن رجلاً أو إمرأة، فيقــول فى وضـــوح قاطع " **ليس يهودى ولا يونانى ليس عبد ولا حر ليس ذكـــر وأنثـــى لأنكم جميعاً واحداً فى المسيح يسوع** " (غلا ٣ : ٢٨) . ثم يضيـف الرســول " **لأنه لا فرق بين اليهودى واليونانى لأن رباً واحداً للجميع غنياً لجميع الذين يدعون به**" (رو ١٠ : ٢).

هذه المساواة هى أساس المواطنة فى فكر الرسول بولس، ولذلك ينادى بالمواطن الصالح وبالسلطات العادلة التى تعمل لصــــالح المواطنيـن، ويحدد العلاقات العامة التى تربط أفـــراد المجتمـــع معـاً، والحقــوق والواجبات التى تحكم الجميع فيقول " **لتخضع كـل نفـس للسـلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هـــى مرتبـة من الله . حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقـــاومون**

سيأخذون لأنفسهم دينونة. فإن الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل للشريرة. أفتريد أن لا تخاف السلطان. إفعل الصلاح فيكون لك مدح منه . لأنه خادم الله للصلاح. ولكن إن فعلت الشر فخف . لأنه لا يحمل السيف عبثا إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر. لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضا بسبب الضمير. فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا . إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه. فأعطوا الجميع حقوقهم . الجزية لمن له الجزية . الجباية لمن له الجباية . والخوف لمن له الخوف والإكرام". (رو ١٣ : ١-٧).

وإن كان الرسول بولس يضع المساواة بين الناس أساسا للمواطنة، فهو يضع " الحرية " رمزا لكل حقوق المواطنة، أو ما نسميه الآن " حقوق الإنسان "، وينادى بالحرية طريقا للخلاص ومصدرا للإبداع ونبعا للتقدم.

لذلك يقول للجميع " **فاثبتوا إذا فى الحرية التى قد حررنا المسيح بها ولا ترتبكوا أيضا بنير العبودية** " (غلا ٥ : ١) . ثم يجعل هذه الحرية مسئولة ومنظمة، للصالح العام للفرد وللمجتمع، فيقول فى نفس السياق " **فإنكم إنما دعيتم للحرية أيها الأخوة. غير أنه لا تصيروا الحرية فرصة للجسد بل بالمحبة إخدموا بعضكم بعضا** "
(غلا ٥ : ١٣).

ولقد مارس الرسول بولس عمليا حقه كمواطن، عندما أعلن وتمسك بجنسيته الرومانية. ونستطيع أن نرى ذلك فى موقفين واضحين فى سفر الأعمال.

الأول : فى مدينة فيلبى عندما ألقى القبض على الرسول وعلى رفيقه " **وإذا أتوا بهما إلى الولاة قالوا هذان الرجلان يبلبلان مدينتنا وهما يهوديان ويناديان بعوائد لا يجوز لنا أن نقبلها ولا نعمل بها إذ نحن رومانيون، فقام الجمع معا عليهما ومزق الولاة ثيابهما وأمروا أن يضربا بالعصى، فوضعوا عليهما ضربات كثيرة وألقوهما فى السجن وأوصوا حافظ السجن أن يحرسهما بضبط وهو إذ أخذ وصية مثل هذه ألقاهما فى السجن الداخلى وضبطا أرجلهما فى المقطرة.**" (أعمال ١٦ : ٢٠-٢٤)

لكن عندما أراد الحكام أن يخرجوهما سرا رفض الرسول أن يتهاون فى حقه كمواطن رومانى " **فحدث بغتة زلزلة عظيمة حتى تزعزعت أساسات السجن فانفتحت فى الحال الأبواب كلها وانفكت قيود الجميع، ولما استيقظ حافظ السجن ورأى أبواب السجن مفتوحة استل سيفه وكان مزمعا أن يقتل نفسه ظانا أن المسجونين قد هربوا، فنادى بولس بصوت عظيم قائلا : لا تفعل بنفسك شيئا رديا لأن جميعنا ههنا، فطلب ضوءا واندفع إلى داخل وخر لبولس وسيلا وهو مرتعد** . (أعمال ١٦ : ٣٧-٣٩) .

والثانى : فى إحدى المواجهات بينه وبين اليهود، عندما قدم لهم خلاصة خبرته الإيمانية فى احتجاج واضح . ويروى لنا كاتب الأعمال ما حدث بعد ذلك، وكيف أعلن بولس حقه كمواطن، فيقول **" فسمعوا له حتى هذه الكلمة ثم رفعوا أصواتهم قائلين خذ مثل هذا من الأرض لأنه كان لا يجوز أن يعيش وإذ كانوا يصيحون ويطرحون ثيابهم ويرمون غبارا إلى الجو أمر الأمير أن يذهب به إلى المعسكر قائلا أن يفحص بضربات ليعلم لأى سبب كانوا يصرخون عليه هكذا فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المئة الواقف أيجوز لكم أن تجلدوا إنسانا رومانيا غير مقضى عليه، فإذ سمع قائد المئة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلا أنظر ماذا أنت مزمع أن تفعل لأن هذا الرجل رومانى فجاء الأمير وقال له قل لى أنت رومانى فقال نعم فأجاب الأمير أما أنا فبمبلغ كبير أقتنيت هذه الرعوية . فقال بولس أما أنا فقد ولدت فيها وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه واختشى الأمير لما علم أنه رومانى ولأنه قد قيده** "(أعمال ٢٢ : ٢٢ -٢٩)

الفصل الرابع
المشاركـــة معـــاً
نحو المستقبل

من الأسس التى ناقشناها معا يتضح أن الإنسان الـــذى خلـق علـى "صورة الله " فأصبح وكيلا لله على الأرض، مدعو أن يقوم بـــدوره " كمواطن" فى تنمية مجتمعه وعالمه فى إيجابية واضحة. فهو مســئول أمام الله عن العالم ككل، وعن مجتمعه الخاص الذى يعيش فيه، عـــن الطبيعة والبيئة والحفاظ عليها، وإكتشاف القوانين المنظمـــة لحركتـــها والعلوم الخاصة بها، والمشاركة فـــى النظـــم السياســـة والاجتماعيـــة والاقتصادية السائدة بهدف الوصول الى حياة أفضل للناس من حوله.

ونحن نؤمن أن الله الواحد هو إله العالم وسيد التاريخ كمـــا أنـــه إلـــه الدين، بمعنى إنه الإله الذى يهتم بكل ما هـــو دينـــى ودنيـــوى معـــا، وبالتالى لا يمكن فصل ما جمعه الله. إنه إله الخليقة وهو أيضـــا إلـــه العهد، إله العدالة كما إنه إله التبرير. الإله الذى يهتم بخلاص الإنســـان وتحريره من الخطية، وكذلك من الظلم والاستغلال والعبوديـــة. إن الله

إله كامل واحد لا يتجزأ، وعمله عمل كامل شامل لا يتجزأ أيضا. وإن كان هذا هو إيماننا، إذن لا يجب أن نفصل الإيمان عن أعمال المحبة التى هى التعبير الصادق عن هذا الإيمان .

ونحن نؤمن أن تجسد السيد المسيح ومجيئه إلى العالم، دعوة صريحة لنا للمشاركة فى تغيير العالم والمجتمع الذى نعيش فيه الى حياة أفضل. فهو مازال يتجسد فينا عندما نعبر عن حبنا " للآخر"، وعن اهتمامنا بقضايا مجتمعنا والمساهمة الفعالة فى إيجاد الحلول لها .

كنائس العالم

على هذا الأساس أدركت الكنائس المختلفة فى العالم أهمية المشاركة فى مجتمعاتها وفى الشئون العالمية المختلفة . فاهتمت هذه الكنائس مثلا " بحقوق الإنسان " وساهمت فى نشرها وتعميقها وتصويب إتجاهها طبقا لظروف المجتمعات المختلفة، فأصدرت الكنيسة الكاثوليكية " الكنيسة وحقوق الإنسان " (الفاتيكان ١٩٧٥)، وأصدر الاتحاد العالمى للكنائس المصلحة (البروتستانتية) كتاب " الأساس اللاهوتى لحقوق الإنسان "(جنيف ١٩٧٦) ، وأخرج الإتحاد اللوثرى العالمى مجلدين الأول " وجهات النظر اللاهوتية عن حقوق الإنسان"(جنيف ١٩٧٧)،والثانى "ما مدى مسيحية حقوق الإنسان؟ " (جنيف ١٩٨١) .

كما تبنت كنائس أمريكا اللاتينية فى الستينات من هذا القرن " لاهوت التحرر " Liberation Theology ، بسبب الفقر والعنف والإضطرابات، وإنتهجت نهجا سياسيا ثوريا في تغيير ظروف المجتمع.

وفى بلاد شرق أوربا والتغييرات الجذرية التى حدثت فيها - بعد سقوط الاتحاد السوفيتى - نستطيع أن نرى دور الكنائس البروتستانتية المصلحة المشاركة فى صنع التغيير والتمهيد له، كما حدث فى رومانيا على سبيل المثال وموقف القس لازلو توكس LAZZLO TOKES الذى انتقد سياسة شاوشيسكو - فى ذلك الوقت - فى تعامله مع المجريين فى رومانيا . هذا الموقف الذى كان الفتيل الذى أشعل موجات الاحتجاج التى أنهت حكم شاوشيسكو فى ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩ . وفى ألمانيا الشرقية، وبعد التحرر من الحكم الشمولى إزداد تقدير البلاد لدور الكنيسة الإنجيلية، فدخل عشرون قسيسا فى برلمان البلاد المكون من ٤٠٠ عضوا، كما دخل ٣ قسوس فى مجلس الوزراء أحدهم وزير الدفاع والثانى نائب رئيس مجلس الوزراء. وفى تشيكوسلوفاكيا، وبعد تحرير البلاد من نير الشيوعية، أصبح الدكتور القس جوزيف رومادكا نائبا لرئيس الوزراء هافيل، تعبيرا عن ثقة الشعب فى الكنيسة الإنجيلية (للدراسة الأوسع انظر بحثا للدكتور القس عبد المسيح إسطفانوس بعنوان " الكنيسة الإنجيلية وشرق أوربا ") .

وفى التاريخ المعاصر لجنوب أفريقيا وكفاحها حتى التحرير لا ننسى دور الكثيرين من قادة الكنيسة وعلى رأسهم الأسقف تيتو الذين رافقوا

الرئيس نيلسون مانديلا فى رحلة الكفاح الشاقة، كمـــا لا ننســـى فـــى أمريكا دور مارتن لوثر كينج ضد التفرقة العنصرية وإقرار الحقـــوق المدنية للزنوج، والقس جيسى جاكسون فى دوره الحالى، والدور الذى لعبه ويلعبه الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر فى اتجـــاه الســـلام العالمى.... الخ .

التيارات الفكرية

على أن الكنيسة وهى تعيش دورها تعرضت لمنحنيات كثيرة . فمـرة يظهر تيار فكرى ينادى بإندماج الكنيسة الكامل فى المجتمـــع الـــذى تعيش فيه، ومن رواد هذاالتيار اللاهوتى الألمانى إرنســت ترولتــش ERNST TROELTSCH الذى ظهر فى بداية القرن التاسع عشـر، والذى نادى بدمج اللاهوت مع القضايا الفكرية والاجتماعية لعصـــره، وقد دعى إلـــى مـــا أســـماه " لاهـــوت الإندمـــاج " Theolgy of Involvement . وبقدر ما أبـــرز هـــذا التيـــار أهميـــة القضايـــا السوسيولوجية والأخلاقية، بقدر ما أخفـــق فـــى القضايـــا الإيمانيـــة والعقائدية، وحول رسالة الإنجيل بغناها وشمولها الى لون من النشـــاط الاجتماعى.

وعلى النقيض من التيار السابق، ظهر تيـــار آخر ينادى بالفصـــــل التام بين الكنيسة والعالم، بيـــن الإلهى والطبيعى أو بين " الروحـــى " و" الدنيوى". وفى ظل هذا التيار الانفصالى ظهرت فى القرنين الثـامن عشر والتاسع عشر حركات تنادى بهذا التوجه عرفـت بالجماعـــات "

التطهرية "وتأثرت بالنظرة " التقوية " أو " البيوريتانية " التـــى تديــن أساليب الحياة المدنية، وأن " العالم " الشرير قد دخل الى حياة الكنيسة، وبالتالى تدعو الى الانسحاب من العالم والانفصـــال عــن المجتمـــع . وخطورة هذا التيار أنه كرس الازدواجية أو الانفصام الذى نراه فـــى حياة الناس بين العبادة وبين السلوك العملى فى الحياة اليوميـــة، كمـــا عمق الفجوة بين هذه الثنائية الله والعالم، الروح والجســـد، الروحـــى والدنيوى الى آخره، بالإضافة إلى الخطر الرئيسى وهو الانسحاب من المجتمع. بالرغم من أن بعض قيادات هذا التيار ساهموا وتبنوا اقامـــة مشروعات اجتماعية عديدة كالمستشفيات والمدارس وتحريـــر العبيـــد والموقف من المرأة.. إلخ، ولكنهم أقاموا مشروعاتهم فى إطار مسيحى بحت ككيانات مستقلة .

ونتيجة لدور الجماعات التطهرية التى أشـــرنا اليـــها علـــى الكنيســـة الإنجيلية، ركز الإنجيليون علـــــى الحيـــاة الخاصـــة Private Life وجعلوا الإيمان علاقة بين الإنسان وربه، وبالتالى أهملوا الحياة العامة Public Life التى تثير قضايـــا الـــبر والحـــق والعـــدل، والظلـــم الإجتماعى، والعلاقة بين الشعب والحاكم، والديمقراطيـــة والحريـــة، والشرور الاجتماعية الى آخر هـــذه القضايـــا العامـــة . لقـــد اهتـــم الإنجيليون أكثر بالفرد وأهملوا الجماعة، اهتمـــوا بـــالمؤمنين ونســـوا المجتمع كله، منادين أن صلاح الفرد يؤدى الى صلاح المجتمع .

أما فى الكنيسة الأرثوذكسية فيقـــول الأب متـــى المسكيـــــــن فـــى كتابـــــه " المسيحى فى المجتمع " صفحات ١٣ – ١٧ ، فى أســـباب

فتور العلاقة التى تربط الكنيسة بالعالم، أن الكنيسة مرت فـى ثلاثـة أدوار منذ العصر الرسولى حتى الآن . الأول هو الإحساس بقـرب مجيء المسيح ثانية بصورة سريعـة (لوقا ١٩ : ١١)، وهـذا الاعتقاد تسبب فى إهمال الكنيسة لمسئوليتها تجـاه العـالم، وصحـح الرسول بولس هذا الاعتقاد الخاطيء فى (رسالة تسالونيكى الثانية ٢: ١و٢) بأن وقت مجيء المسيح لا يعرفه أحد، كما لا يسـتطيع أحـد تحديد نهاية العالم، لذلك ينبغى أن نستيقظ لمسئوليتنا ولدورنا . الـدور الثانى برز فى مطلع القرن الثالث وهو الإضطهاد العنيف ضد الكنيسة الذى نظمه العالم الوثنى بقسوة بالغة، لذلك دخلت الكنيسة ليـس فـى شعور الغربة فقط بل العداوة للعالم . هذا الشعور زاد جدا من انكمـاش الكنيسة وتقلص دورها. أما الدور الثالث فقد جاء موازيا تماما لحركـة الاضطهاد والاستشهاد، ومتأثرا بها نوعا ما، واحتجاجا صارخا سـلميا ضد العالم ومظالمه، وهو الدور الذى برز فى حركة الرهبنـة التـى أنطلق فيها الناس الى الجبال والبرارى يعيشون، أو يموتون عن العالم. وبهذا تكون الكنيسة قد أخذت أكثر مواقفها السلبية ضد العالم فى هؤلاء الأشخاص الذين هجروا العالم نهائيا ونبذوه باعتباره موطـن الخطيـة والفساد.

وإن كنا نرى أن تيار الاندماج بين الكنيسة والعالم قد تطرف إذ أهمـل التركيز على طبيعة الكنيسة، فتيار الانفصال والانسحاب قد تطـرف كثيرا لأنه أهمل رسالة الكنيسة وأفقدها دورها الإيجابى كنـور وملـح الذى نادت به كلمة الله. ولذلك ظهر تيار ثالث معتدل ينظر الى العلاقـة بين الكنيسة والعالم نظرة متوازنة. وكتعبير عن هذا التيـار، حـددت

الكنائس كلها فى العالم رؤيتها نحو دور أكثر فاعلية فى المجتمع لصالح تنميته وتطويره، والمشاركة فى صنع حياة أفضل لكل أفراده . ومن هنا أفرد المجمع الفاتيكانى الثانى حيزا كبيرا فى وثائقه عن الكنيسة فى العالم المعاصر (١٩٦٢ - ١٩٦٥) (أنظر الطبعة العربية الثانية لوثائق المجمع صفحات ٢٩ - ١٣١)، وفى هذه الصفحات نجد الحديث عن كل القضايا المعاصرة، وعن دور الكنيسة ومسئوليتها فى المشاركة فيها.

وفى اتجاه متقارب سارت الكنائس الإنجيلية فى تجمعها فى لوزان فى سويسرا عام ١٩٧٤ حيث نادت بالدور الإيجابى الشامل للكنيسة فى العالم. كما نادى المفكرون واللاهوتيون الإنجيليون بخطأ الاعتقاد بأن صلاح الفرد يؤدى حتما الى صلاح المجتمع،لأن طبيعة المجتمع مركبة ومعقدة والعلاقات فيه متداخلة. ومن بداية الإصلاح ظهر هذا التصحيح، ففى الوقت الذى يركز فيه لوثر على تجديد الفرد، ركز كلفن على تجديد المجتمع. وقد شرح اللاهوتى المعاصر "رينهولد نيبور " هذه الفكرة فى كتابه " الإنسان الأخلاقى والمجتمع غير الأخلاقى" Moral Man And Immoral Society ،وفكرته أن العلاقات بين الأفراد كأفراد يمكن أن تبنى على أسس أخلاقية، لكن العلاقات بين المجتمعات تبنى على أساس سياسى، وما ينطبق على الفرد لا نستطيع أن نطبقه على المجتمع ككل (أنظر مقال للدكتور القس فايز فارس " المسيحى والسياسى" مجلة الهدى عدد فبراير ومارس ١٩٨٦) .كما نادى اللاهوتى الألمانى المعاصر " ديترش بونهوفر " الذى أعدمته السلطات النازية لأنه أعلن رأيه فى النازية كنظام

سياسى، بأنه " ليس فى الإمكان أن يحتمل العالم الحديث تجاهل الواقع بالبحث عن المسيح دون العالم، أو البحث عن العالم دون المسيح ". كما نادى " مولتمان " – الذى أشرنا إليه سابقا – بأن " المسيحية ينبغى أن تقدم نفسها دائما فى طاعتها اليومية، وفى تجاوب المسيحيين لنداء العالم لهم ليقوموا بدورهم الاجتماعى".

المجتمع المصرى

وفى المجتمع المصرى تحاول بعض القيادات المسيحية التى أدركت هذا التيار المعتدل المنفتح، الذى يرى الكنيسة " كالخميرة " فى العالم، أن تدفع الكنيسة أن تنفتح على مجتمعها وتشارك فى تنميته . وفى كتابه " المجتمع فى ميزان الكنيسة " وفى الصفحة التاسعة يقدم الأب فاضل سيداورس اليسوعى ثلاثة اعتقادات رئيسية، الأول " أن رسالة الكنيسة فى المجتمع لا تقتصر على الاهتمام بالأفراد، والأفراد المؤمنين فحسب، وإنما تشمل الجماعات والفئات والمجتمع بأسره . والثانى أن رسالة الكنيسة لا تقتصر على الروحانيات ولا على المستوى الروحى فقط، بل تشمل الشخص بكامله، الشخص كوحدة متكاملة متجانسة لا تتجزأ. والثالث أن لا ثنائية ولا انفصال بين الله والإنسان، بين السماويات والأرضيات، بين الكنيسة والعالم، بين الروح والجسد. فبالطبع لكل طرف خاصيته التى يستأثر بها، ويتميز بها عن الآخر، وإنما التمييز لا يعنى الفصل والإزدواجية، بل هناك تفاعل وتكامل بين الأطراف " .

وعلى الجانب الإنجيلى هناك كتابات كثيرة تدفع الى هذا الاتجاه الصحيح المعتدل، كما أشرنا الى بعضها فى سياق حديثنا السابق، كما أضاف الدكتور القس صموئيل حبيب إسهامات عديدة فى هذا المجال آخرها كتابه " الكنيسة والدولة "، بجانب الدور الواضح للطائفة بقيادته فى المشاركة فى ظروف ومشكلات بلادنا، من خلال اللقاءات والمؤتمرات، والعمل المشترك مع كل القيادات الدينية والفكرية والإعلامية، والتعاون مع الكنائس فى اللقاءات القومية. كما لا نستطيع إغفال دور السنودس ممثلا فى مؤسساته الطبية والتعليمية التى تخدم الجميع دون استثناء. كما أن الدور المتميز للهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية فى تطوير القرية المصرية لمدة تزيد على الأربعين عاما، قد جسد بأداء رائع هذا الاتجاه المنفتح .

وبالقطع هناك الأدوار والهيئات الأخرى للكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية مما يضيق المجال هنا لحصره وذكره فى عجالة سريعة كهذه. ويكفى مجرد الإشارة إلى أدوار وكتابات قداسة البابا شنودة، وإصدارات أسقفية الشباب و المركز القبطى للدراسات الاجتماعية، ونشاط وكتابات الأنبا يوحنا قلته، ومجموعة العدالة والسلام.....إلخ.

لكن السؤال هنا .... لماذا مع كل هذه المجهودات لدفع الكنيسة فى الاتجاه الصحيح، وهو الانفتاح على المجتمع، وأن تحافظ على طبيعتها المقدسة وفى نفس الوقت على رسالتها المجتمعية فى توازن دقيق، لماذا تبدو الكنيسة – حتى الآن – متأثرة بالتيار الانفصالى السلبى بشدة؟ عاجزة على الانفتاح والحركة ؟ للإجابة على هذا السؤال نقول

أنه بالإضافة إلى العامل الفكرى أى تأثر الكنيسة بالتيار السلبى، الـذى ما زالت ملامحه بارزة حتى الآن، متمثلة فى النظرة السلبية " للعالم "، وفى النظرة " الفردية " للحياة الروحيـة، هنـاك عوامـل اجتماعيـة وسياسية خاصة بظروف مجتمعنا. ففى الأوقات الطويلة التى لم نتمتـع فيها بلادنا بمساحة معقولة من الديمقراطية، وأخذت بالنظام الشـمولى، امتنع المواطنون - مسلمين ومسيحيين - عن الانشغال بالسياسة. إمـا خوفا من الأخطار التى يتعرض لها الفرد عند المشاركة فـى أى رأى يتعلق بنظام الحكم، أو إحساسا بالإحباط نتيجة الأثر المعدوم لأى جـهد يقوم به المواطن. وهنا توقفت الكنيسة عن المشاركة الإيجابية الواجبة. إن المشاركة الإيجابية النشطة تنمو دائما - وفى كل بلاد العالم - فـى المناخ الديمقراطى وفى الطابع المدنى للمجتمع المعـاصر، وبغيـاب هاتين الركيزتين الأساسيتين تغيب المشاركة أو تضعف جدا.

وإذا تركنا فترة الخمسينيات والستينيات، وأتينا إلى مرحلة السـبعينيات فى أيام الرئيس الراحل أنور السادات، نجد بداية تحرك نحو الركـيزة الأولى متمثلة فى " المنابر" التى أصبحت بعد ذلك " الأحزاب"، وهـى خطوة هامة نحو التعددية السياسية، لكننا فى نفس الوقت نجد تراجعـا عن الركيزة الثانية وهى المجتمع المدنى. وبسبب هذا التناقض الـذى تعلقت أسبابه بحسابات السلطة السياسية فى ذلك الوقت، انكمش الطابع المدنى، وبرزت بشدة الصبغة الدينية على كـل شـىء، وزادت لغـة الخطاب الدينى كثافة، سواء فى وسائل الإعلام أو مناهج التعليم، وبدأنا نقرأ ونسمع التهجم على جوهر العقائد الدينية للآخر، والتميـيز بيـن المواطنين على أساس دينى وليس علـى أسـاس المواطنـة. وهنـا

تصاعدت أحداث العنف التي نعرفها جميعـــا، وازدادت وطأتــها فـــي البداية على المسيحيين قبل أن تصل إلى القطاعات والفئات الأخرى في المجتمع. في هذا الجو انغلقت الكنيسة أكثر على نفسها، وتعمق - رغم كل مجهودات القيادات التي ذكرناها - إحساس الاغـــتراب، وغـــابت فكرة المشاركة النشطة من بؤرة التركيز.

وعندما جاءت حقبة الثمانينات في عهد الرئيس مبارك ، جاءت بانفراج حقيقي متدرج. فبدأ بخروج القيادات الدينية والسياسية والفكريـــة مـــن السجون، واستقبلهم في رئاسة الجمهورية تعبيرا عن عصر جديد مـــن الحرية والديمقراطية. ثم بدأ تدريجيا في اتساع مساحة الديمقراطية بدءا من رفع الرقابة كاملا على الصحف لدعم حرية الرأى، وإنتهاءا بتعديل قانون مباشرة الحقوق السياسية الذى أزال العقبـــات أمـــام المشـــاركة الأوسع للجماهير. بل أكثر من ذلك، يدعو الرئيس مبارك الجماهير في خطابه الأخير أمام مجلس الشعب والشورى الى ضرورة المشاركة في إطار المســـئولية الوطنيـــة، وأن المشـــاركة هـــي جوهـــر العمليـــة الديمقراطية.

وفي هذا الخطاب يناشد الرئيس مبارك جميع القوى الوطنية في مصـــر المشاركة في العملية السياسية وعلى رأسها الانتخابات العامة قائـــــلا " إنني أتطلع الى مشاركة أوسع من جانب الجماهير المصريـــة .. لأن المشاركة الجماهيرية الواسعة تحـــرس نزاهـــة الانتخابـــات وتحمـــي حيادها، ولأنها تؤكد خروج المواطن من عزلته كي يصبح شريكا في صنع المستقبل، ويسهم برأيه الحر في إســـتقرار حياتنـــا النيابيـــة..

وفضلا عن ذلك فإن المشاركة الجماهيرية الواسعة سوف تؤدى بالضرورة الى تصحيح مسار الحياة الحزبية فى مصر، لأنها سوف تجعل الأحزاب أكثر تواصلا مع الجماهير، وأكثر اهتماما بهمومها وقضاياها "(الأهرام فى ١٨ نوفمبر ١٩٩٤) .

دعوة للمشاركة النشطة والانفتاح على المجتمع

فى هذا المناخ الممتلئ بنسمات الحرية والديمقراطية الذى يقوده رئيس الدولة والحكومة فى المجال السياسى - كما رأينا - وفى المجال الاقتصادى بالإصلاح الواعد بحياة كريمة للمواطنين، والذى نرجو أن يحقق هذه النوعية من الحياة لكل أبناء الوطن .. فى هذا المناخ نقدم دعوة للكنيسة ودعوة للمجتمع .

والكنيسة مدعوة الآن لتدرك المتغيرات التى حدثت فى العالم عامة وفى مجتمعنا المصرى خاصة، وأن تدرك من الناحية الأخرى رسالتها ودورها كما رأيناها فى أصولها وأسسها الكتابية واللاهوتية. وأن تخرج من سلبيتها وعزلتها واغترابها الى المشاركة الفعالة فى هموم وطنها وقضاياه، بديناميكية تعبر فعلا عن وجودها وحيويتها. وأن تقدم التعليم والتهذيب اللاهوتى الذى يبرز مسئولية الكنيسة نحو مجتمعها، وأن تشجع المسيحيين على القيام بدورهم، كما ترعى المشتغلين منهم بالسياسة والعمل العام دون توجيههم اتجاها سياسيا معينا بل تثق فيهم وتشجعهم على الحركة الحرة لصالح وطنهم، وأن تذكر الجميع بإرادة الله نحو العالم، وأن الحكام يجب أن يستخدموا سلطانهم لخير وحرية وكرامة الإنسان والمجتمع.

والكنيسة مدعوة أيضا الى تشجيع الأفراد على متابعة الأحداث التى تجرى فى المجتمع من خلال كل وسائل الإعلام، والاهتمام بممارسة

الحقوق المدنية فى الاستفتاءات والانتخابات العامة، وأن يسرع الكل للقيد فى كشوف الانتخابات. وأن يشترك الأفراد فى المنظمات الجماهيرية، والقنوات الشرعية للتعبير عن الرأى، مثل اتحادات الطلاب والنقابات المهنية والأحزاب السياسية. وأن يعبروا فى كل هذه عن المحبة للقريب دون اعتبار للاختلافات السياسية أو الحزبية أو الدينية، وأن يراعوا مصلحة المواطنين بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية أو السياسية. وعند اختيار مرشح ما، عليهم أن يختاروا أفضل المرشحين دون أى تعصب أو تفرقة. كذلك على المسيحيين أن يشاركوا فى الأزمات والكوارث مع باقى المواطنين فى كل المواقع التى أضيرت، بما يساعد الجميع على الخروج من أزمتهم، وأن يقدموا قدر الطاقة التعبير العملى لمعنى الأخوة والمواطنة.

والكنيسة مدعوة أن تدرس المشكلات الواقعية للبيئة التى تعيش فيها، وأن تساهم بالرأى والتوعية فى طريق حل هذه المشكلات، كالإسكان والانفجار السكانى، والتنمية واتجاه السلام، والبطالة، والهجرة، وتلوث البيئة، ومشكلات الفقر الظلم، وتفسخ القيم، ورعاية المسنين، وعلوم الأجنة والهندسة الوراثية، وزراعة الأعضاء، وحقوق الإنسان، وقضايا المرأة والطفولة، ومحو الأمية، وتطوير القرية والريف المصرى، والإدمان، وبالإجمال كل ما يتعلق بتنمية الإنسان والمجتمع .

والكنيسة مدعوة بالحب، أن تحقق صلاة السيد المسيح " **لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير** "(يوحنا ١٧ : ١٥). أن تحب " العالم " بمعنى الكون والجنس البشرى والطبيعة

والبيئة والمجتمع لا بمعنى " الشرير " و " الشر " الذى فى العالم الذى يطالبنا السيد المسيح أن نتحذر منه وأن نتجنبه. أن تحب العالم لا أن تهرب منه أو تنعزل عنه، ولا أن تسايره وتشاكله، بل أن تكون فى العالم وفى المسيح، وأن تكون على استعداد للتضحية من أجل العالم والمجتمع الذى تعيش فيه تشبها بالمسيح، لأنه " **هكذا أحب الله العالم** .."

(يوحنا ٣: ١٦)

والكنيسة مدعوة للإيمان بوضعها كأقلية فاعلة إيجابية بدون إنكار أو خجل أو خوف، وبدون شكوى أو تذمر، وبدون عقدة نقص أو عقدة اضطهاد، وبدون اختباء أو تبنى نظرية كبش الفداء. بل أن تقبل نفسها وتقوم بدورها فى إيمان واحترام وثقة، وبدون تعصب أو تصلف، ولملء الكيان الحقيقى لا للظهور، ولعطاء الذات للجميع وليس طلبا لسلطة أو امتياز. وأن تدرك الدور الكبير والخطير للأقليات الفاعلة فى كل العالم، فالأنبياء والرسل أقلية، والقيادات التى تصنع الأحداث أقلية، والعلماء الذين يحققون سعادة وخير البشر أقلية. والأقلية عقلها هو المركز, لأن جسدها محدود، ولذلك تفكر بعمق وتخطط بروية، وتهتم بنوعية الحياة، وبالكيف المنتج المتميز، وبالسلوك الشاهد المقنع، وبالتواجد الخادم المحب، وبالرؤية الواضحة الواعية، وبقراءة علامات الأزمنة وحتميات المكان بعين مفتوحة وحركة مرنة. هذه هى الأقلية الفاعلة التى ننادى بها، والتى تتحمل مسئولية ومخاطرة الإيمان والمحبة فى مشاركتها النشطة فى مجتمعها، وليست الأقلية المهتزة والمغتربة، المتبلدة والجامدة، المهاجرة من المكان أو من الزمان أو

من الأثنين معا. بل الأقلية التي لها إيمان وروح وحب وجسارة يشوع وكالب في قولهما " **إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرون عليها** " (عدد ١٣ : ٣٠).

والكنيسة مدعوة الى دور تربوى تقوم فيه بتنشئة الأجيال الجديدة على المفاهيم الصحيحة للمواطنة والمشاركة والمسئولية الوطنية، وأن تدخل هذه المفاهيم فى جميع البرامج ولجميع الفئات بمختلف مستوياتهم بمثابرة وصبر، حتى نتمكن من وجود أجيال نشأت من صغرها على الرؤية الإيمانية الصحيحة للعالم والمجتمع. وهذا يعنى أن تقوم الكنيسة بتهذيب وتدريب قيادات قادرة أن تقوم بهذا الدور التربوى للأجيال الجديدة، قيادات اكتسبت هذه الرؤية أصلا حتى تستطيع تقديمها باقتناع وإقناع. وإذا استطاعت الكنيسة القيام بهذا الدور بنجاح سوف تفرح ليس فقط بالأجيال التى تخلصت من الرواسب السلبية، بل ستجذب أيضا الأفراد الذين هجروا المتجمعات الدينية، عندما أحجمت هذه المجتمعات عن الانشغال بقضايا المجتمع الاجتماعية والسياسية، لأنهم اعتبروا هذه المجتمعات والكنائس – على حد قول الدكتور القس فايز فارس – نوعا من الأحلام الميتافيزيقية والمستقبلية البعيدة التى تتجاهل مشكلات العصر الحاضر، فاشتغلوا بالسياسة غير مستفيدين بالقيم الروحية التي يمكن أن تغرسها فيهم .

ما أكثر الأدوار التى يجب أن يقوم بها الفرد المسيحى والكنيسة كمجموع، فى مناخ مشجع، وفى وقت تحول ضخم فى بلادنا سواء فى الداخل أو فى المنطقة ككل وهى تقوم بدورها كركيزة الاستقرار

وراعية السلام، ووسط تحديات صعبة ومتعددة.. إنها صرخة أن يستيقظ الجميع من سباتهم، وأن يعود الكل إلى وعيهم الغائب، وأن يتعاون المسيحيون مع إخوتهم المسلمين فى المساحات الكثيرة للعمل الوطنى المشترك. الذى يستند إلى فكرة وقيمة المواطنة، لمواجهة تحديات قرن قادم.

دعوة للمجتمع

على الجانب الآخر هناك دعوة للمجتمع أن يرتفع بقيادة النخبة المسئولة والمفكرة والإدارات المختلفة، إلى مستوى التوجه الذى تتطلبه هذه المرحلة الهامة من تاريخنا. وأن تدفع المجتمع على إزالة جميع العقبات والقيود التى تعرقل حركة المشاركة النشطة للجميع. وأن تصوغ " طريقة تفكير جديدة " تناسب انطلاقتنا المرجوة، تقبل فعلا التعدد والتنوع، وتنسجم مع الآخر كما تتصالح مع الذات، وتعلى قدر القيم الدينية السامية والإيجابية التى هى سور الأمان والأمن للجميع. وأن تعمق مفهوم المواطنة بمعنى المساواة والحرية والمشاركة للكل، كما تنادى بالتكامل والتعاون والانفتاح على الأديان والحضارات للإثراء والإبداع، وأن تبتعد عن أى اتجاه يمثل خطرا على وحدة الوطن ونسيج المجتمع المصرى الواحد.

وهناك – والحمد لله – العدد الكبير من هذه النخبة الذى قاد ويقود هذا التوجه المستنير ويصارع الأهواء والأنواء العاصفة التى تهدد مجتمعنا وعلى سبيل المثال يقول الأستاذ فهمى هويدى فى كتابه " مواطنون لا ذميون " وفى الصفحة التاسعة " نحن بإزاء موقف يتهدد المسلمين

وغير المسلمين، الاستسلام له سيقود الجميع الى قاع أليم، والسكوت عليه اشتراك فى الجريمة تقترب من التواطؤ والتستر، وليس أمامنا إذا أردنا لأنفسنا بقاء واستمرار، إلا أن نستجمع القوى، ونتشبث بما تبقى من خير وعقل لدى هذه الأمة، لنثبت ونقاوم ونمسك بالزمام قبل أن يفلت ".

هذه الطريقة الجديدة في التفكير يسميها الأستاذ والمفكر سامى خشبة " الفقه الجديد " أى القانون المناسب للوضع الجديد، ثم يضيف فى (أهرام الجمعة ١٩٩٣/١٢/٢٤) : إن مواطنى مصر لم يعدوا لا فى وعى الحركة الوطنية، ولا فى الواقع، مجرد مسلمين و" أهل ذمة "، إنما أصبحوا جميعا مواطنين مصريين. هذا ما يجب أن نعيد اكتشافه الآن، لأنه كان " حجر الأساس " لبناء وعينا الوطنى الحديث ودولتنا الحديثة.. ". وفى نفس المعنى يقول "جيمس كونانت " (١٨٩٣ – ١٩٧٨) عالم الكيمياء الأمريكى " إن المجتمع الذى يتكون من جميع أعضائه، هو فى الوقت نفسه ملك لجميع أعضائه، وهذا هو الأساس للديمقراطية " .

أما " المستشار طارق البشرى " فيقول فى كتابه (الشعب الواحد والوطن الواحد صفحة ٧٧) " .. كل ما وراء المساواة والمشاركة لا يملك أحد أن يضمنه لأخيه ولا لنفسه. وليس من عاصم إلا الانتماء وإنكار الذات. وكيف يأتى ذلك بغير إسلامية المسلم وقبطية القبطى معا، يتوحدان مندمجين فى وطن واحد على أرض واحدة .. إن المساواة تعنى الاتحاد، وهى تتضمن المشاركة، وهما من أوضاع

المواطنة وتقرير المساواة حل دستورى، وهى فى الوقت نفسه تحتاج الى نشاط فكرى على أسس وطنية وقومية جامعة فى إطار الأهداف العليا للمجتمع. فى تصديه لأعبائه وفى تحقيقه لنهضته، فضلا عن إحياء العلاقات التاريخية الصحية بين ذوى الأديان فى إطار المواطنة. والتاريخ القبطى يمثل حقبة من التاريخ المصرى الطويل القديم، وقد سبق العصر القبطى العصر الإسلامى، فلا يوجد ما يتنافى مع الإسلام فى تقرير بطولات هذا العصر، وما كان فيه من رجال عظام مثل أثناسيوس، ومن حركات شعبية مجيدة هى مصدر فخار واعتزاز لمصر وللمصريين ..... ونذكر قولة الشيخ البنا " أن الإسلام أكسب هذه الوحدة صفة القداسة الدينية بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدنى فقط. وعلى الغالبية مراعاة هذا الجامع. على الأقلية الدينية مراعاة ما فى الحضارة الإسلامية العربية من معنى يتعلق بقوميتهم، بمثل ما يرحب المسلمون بالتاريخ القبطى وما فيه من مجد وعزة وألا يسمحوا لأفراد أن يتجاوزا إطار الصالح العام للجماعة كلها .

لم تبن وحدة مصر فى ١٩١٩ بفصل الهلال عن الصليب، بل كان رمزها احتضان الهلال للصليب، كرمز لاحتضان الغالبية الدينية للأقلية. ونحن لا نبحث عن صيغة فناء بل صيغة وجود. وجود حى قوى. وحسبنا على هذه البسيطة المساواة والمشاركة فى الوطن. والتواد والتحاب فى العيش. والتزاور فى الدور، والتجاور فى القبور".

أما الدكتور أحمد كمال أبو المجد، وزير الإعلام السابق، والمفكر الإسلامى المعروف، فينادى فى كتاب " رؤية إسلامية معاصرة

إعلان مبادىء " فى القسم الثانى والـــذى يتحـدث عـن المنطلقـات الأساسية، ينادى بحرية العقيدة والعبـادة، والمسـاواة الكاملـة بيـن المواطنين المسلمين وغير المسلمين على قدم المساواة التـى يكفلـها الدستور وتنظمها القوانين (أنظر صفحة ٣٧) .

وفى (صفحة ٣٩) من نفس الكتاب يقول " الحريات العامـة شـرط للنهضة الحقيقية ... هذا حكم العقل وتوجيه الإسلام وشهادة التـاريخ . وبقى أن يعرف العرب المسلمون حكاما ومحكومين أنه ليس أمام أحـد خيار فى هذه القضية. وأن الذين يحاولون الالتفاف على هذه الحقيقـة إنما يحرثون فى البحر ويبنون قصورهم على الرمـال .. ويضيعـون أوقات شعوبهم وفرصها الحقيقية للنمو والتقدم .. وتصـور الإسـلام للإنسان .. يمنع أن تصادر الحرية باسم المصلحة، أو أن يتسلط بعض الناس على بعض، ولو تم ذلك تحت لواء الدين .. إن احترام الحريـات العامة هو الضمان الحقيقى للتقدم والبناء والاستقرار. إننا نعلن فى غير مواربة ولا مجاملة لأحد، إننا نبرأ الى الله والى الناس مـن تجزئـة الحرية والمناداة بها لفريق وإنكارها لآخر " .

وفى مقال بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٨/١٢/١١ بعنـوان " حقـوق الإنسان .. وحوار الأديان " يقول الدكتور أحمد كمال أبو المجد :

" تظل القضية قضية تخلف الواقع عن ملاحقة المبـادىء الأخلاقيـة والتشريعية الحاكمة والواجبة الاتباع. وهى قضية إصـلاح مجتمعـى وليست قضية أزمة يقف فيها الاسلام عقبة دون منع التفرقة والتمييز..

وبقى فى النهاية أن نذكر جميعا مسلمين وغير مسلمين، وأن التطـــور الهائل فى التقنيات والثورات العلمية المتصلة على فائدتها الكبرى فـــى تنظيم وتيسير حياة الناس، إلا أن كثيرا من حقوق الانســـان وحرياتـــه تعيش أزمة حقيقية بسبب الخواء الروحى الذى صاحب عبادة الـــذات وعبادة المال فى أجيالنا المعاصرة. وان استكمال رعاية حقوق الانسان تقتضى تعاونا صادقا بين أبناء الثقافات المختلفة بحثا عن الإنسانى فـى نسيجها، واكتشافا للمشترك بين الثقافات فى هذا النسيج. إذ لابد لجـهود حماية حقوق الانسان من أصول أخلاقية ومبدئية تقوم عليـــها، ومـــن حراسة دائمة لمن يمارسها.."

وفى ندوة فى رحاب المجلس الأعلى للثقافة بعنوان " حركة التنوير فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين " التى نظمتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس من ٥ – ٧ أبريـــل ١٩٩٤، يقـــول المفكـــر الراحل " الدكتور صلاح العقاد " إن منظمى الندوة اختاروا بعض الموضوعات التى تكشف قضايا كانت قد حسمت ثم عاد المتزمتون يطرحونها فـــى أيامنا تلك .. من هذه الموضوعات مفهوم الانتماء الوطنى الذى كـــان محل جدل فى أوائل القرن العشرين بيـــن أنصـــار فكـــرة الجامعـــة الإسلامية وفكرة الوطنية المصرية. الى أن تبلور هذا المفهوم فى ثورة ١٩١٩ التى لم تقف عند حد اختيار المفهوم الوطنى بالمعنى الحديـــث، الذى يعبر عن مجتمع متجانس تاريخيا ومكانيا، وإنما أيضا تجـاوزت ثورة ١٩١٩ الروح الطائفية التى كانت تعرقل تطور فكـــرة الوطنيـــة المصرية... " (الوفد ٣١ /٣/١٩٩٤) .

ويقول المفكر الاقتصادى الدكتور حازم الببلاوى " لا وجود للفرد دون مجتمع يعترف بحقوقه وحرياته " (أنظر كتابه " التغيير من أجل الاستقرار" صفحة ٢٨) .

وأخيرا يقول أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى حواراته مع الأستاذ/ محمد سلماوى في وجهة نظر فى جريدة الأهرام بعنوان الأقباط " يجب أن يكون النموذج الذى نحتذى به هو ما كان سائدا فى فترة ثورة ١٩١٩ حين لم نكن نعرف من هو المسلم ومن هو المسيحى. فقد كنا جميعا مصريين نحارب معركة واحدة فى مواجهة عدو واحد من أجل حرية وطن واحد، وكثيرا ما يقال أنه فى هذه الفترة كان هناك توحد كامل بين عنصرى الأمة من أقباط ومسلمين، لكن الحقيقة أن مصر ليس بها عنصران فنحن عنصر واحد، نحن جميعا من نسل الأقباط لكن بعضنا دخل الدين الإسلامى، والبعض ظل على دينه المسيحى . وكثيرا ماكان يتزاوج هؤلاء من هؤلاء، وكنا فى جيلى نسمى أنفسنا جميعا أقباطا وطنا ومسلمين أو مسيحيين دينا.

وفى نفس المكان بتاريخ ٦/١١ /١٩٩٨ يتحدث نجيب محفوظ عن مكانة الأقباط فى المجتمع المصرى، بمناسبة ما يثار فى الولايات المتحدة حول دعاوى الاضطهاد الدينى فقال :

إنى لا أتذكر أبدا منذ بداية وعيى على الحياة أن كان للأقباط أسباب للشكوى من اضطهاد أو تفرقة، فلم يكن هناك فرق بين المصريين ما بيم مسلم ومسيحى، وأذكر فى المرحلة الليبرالية السابقة على الثورة أن

كان الكثير من الوظائف الكبرى فى الدولة يشغله الأقباط وفى ذلك الوقت كان أهم شئ تظهر به التفرقة فى المعاملة هى الوظائف، فقد كان الحزب الحاكم يغير ويبدل فى الوظائف الكبرى كما يشاء، وفى فترات حكم الوفد بشكل خاص كان بعض معارفى من الأقباط يقولون لى : نحن الآن فى العصر الذهبى للمساواة، وذلك أن الاضطهاد الذى كان سائدا آنذاك هو الاضطهاد السياسى وليس الدينى، وكان ضحية ذلك هم المسلمين والمسيحيين معا، فإذا كان الإنسان وفديا كانت تأتى فترات يفرق فى المعاملة ضده ويضطهد لأنه وفدى، وبصرف النظر عن ديانته فيتم رفتهم وتنحيتهم إلى أن يعود الوفد للحكم مرة أخرى فيعودون، وأذكر على سبيل المثال أنه فى هذه الفترة حين لم يكن عدد الوزراء يزيد على ١٥ وزيرا أن كان هناك وزيران من الأقباط وأن رئيس مجلس النواب كان قبطيا وأكاد أقول أنه كان هناك تميز للأقباط فى ذلك الوقت.

على أنى أريد أن ألفت النظر إلى نقطة مهمة، وهى أنه إذا كان هناك تغير طرأ فى هذا الصدد فذلك ليس مرجعه تغير فى طبيعة الشعب المصرى وإنما مرجعه هو الإرهاب وأفكاره التى انتشرت فى الآونة الأخيرة والتى لا تفرق ضد الأقباط وحدهم، وإنما ضد المسلمين أيضا ممن لا يسايرون اتجاهاتهم المتطرفة.

خـــاتمـــة

• إنها دعوة للمشاركة النشطة، والانفتاح على المجتمع وتبنى قضاياه، والعمل معا مسلمين ومسيحيين على تقــــدم مجتمعنــــا واســـتقراره ونهضته. بلا سلبية وبلا استعلاء فى نفس الوقت. المشاركة التـــى تصهر الشعب، وتصوب المسار، وتصور الروح الوطنية الواعية .

• دعـــــــوة للعمل معـــا فى " الحياة المشـــــتركة " علـــى ترسـيخ أرضية " المساحة المشتركة " للقيم والمفاهيم التى تؤمن بها الأديـان جميعا. والتى لخصها Paul Tillich فى كتابه المشهور " المحبــة والقوة والعدل " Love Power and Justice.[8]

والدكتـــور عبد المنعم سعيد فى مقالــــه بأهرام الأثنين ١٩٩٧/١٢/٨ " الإيمان والمدنية والتسامح ". الإيمان بتاريخه الطويل قبـــل الأديـــان وبالأديان بعد ذلك، والمدنية بتاريخ الشعب العريق وتجاربه الغنيـــة، والتسامح بالعلاقات والوطيدة التى تجمع الشعب الواحد دائما.

• دعوة عبـــــر عنها أمير الشعراء أحمد شوقى أجمل تعبير عندما قال :

---

[8] Paul Tillich . Love Power and Justice . (London : Oxford univresity Press, 1977).

أعهدتنا والقبـــــط إلا أمـــــــــة — فى الأرض واحدة تروم مرامــــــا
نعلى تعاليـــــم المسيح لأجلهـــــم — ويوقـــــرون لأجلنـــا الإســـلامــا
الديـــن للديـــان جـــل جلالـــــه — لو شـــاء ربـــك وحـــد الأقـــوامــا
هـــذى قبوركـــم وتلك قـــبورنـــا — متجاوريـــن جماجـــا وعظـــامـــا
فبحرمة الموتى وواجب حقهم — عيشوا كما يقضى الجوار كراما

وفى " صلاة الوحدة الوطنية " التى صاغها أحمد شوقى، عنـد سـفر الزعيم سعد زغلول على رأس وفد إلى إنجلترا مطالبا بالاستقلال، وقد اشترك فيها فى وقت واحد مسلمو ومسـيحيو مصـر فـى المسـاجد والكنائس، بحضور مشترك إذ كان كل شخص يذهب إلى أقـرب دار عبادة له مسجد أو كنيسة. وقدم الجميع هذه الصلاة الرائعة :

" اللهم قاهر القياصر ومذل الجبابر
هذى كنانتك فزع إليك بنوها
وهرع إليك ساكنوها
هلالا وصليبـــا
بعيدا وقريبـــا
شبانا وشيبـــا
نجيبـــة ونجيبا
مستبقين كنائسك المكرمة
التى رفعتها لقدسك أعتابا
ميممين مساجدك المعظمة

التى شرعتها لكرمك أبوابا
نسألك فيها بعيسى روح الحق
ومحمد نبى الصدق
وموسى الهارب من الرق
أن تعزنا بالعتق إلا من ولائك
ولا تنزلنا بالرق لغير آلائك
فأتنا اللهم حقوقنا كاملة
فى قضيتنا العادلة ... "

ما هي المواطنة؟

وما هي صور التعددية في المجتمـع؟
وهل للمواطنة أساس لاهوتي وكتابي؟
وما هو موقف الكنيسة من قضية المواطنـة
بعد أن تجاذبتها تيارات تنادي بالفصل التام
بين الكنيسة والعالم، وأخرى تنادي بدمج
اللاهوت مع القضايا الفكرية والاجتماعيـة؟
وما هو دور الكنيسة الآن في تعميق معانـي
المواطنة وأسسها، ودعوة الناس للخروج من
السلبية إلى المشاركة الفعالة في همـوم
وقضايا الوطن؟



١٠١٠٠٢٧٧